المحاضرة الثانية: القصص في العصر الجاهلي

شغف العرب منذ العصر الجاهلي بالقصص شغفا شديدا، فكانوا يزجون بها أوقات فراغهم بالليل، أمام مضارب خيامهم حيث يجتمع شباب القبيلة وشيوخها، ونساؤها يستمعون أحاديث القصاص بكل شغف ولهفة وشوق ، خاصة وأن القصاص كانوا يضفون على قصصهم من خيالهم مايجعلها تبهر السامعين.

و يرى شوقي ضيف أنه ليس بين أيدينا شيء من أصول هذا القصص الذي كان يدور بينهم، غير أن اللغويين والرواة في العصر العباسي دونوا لنا ماانتهى إليهم منه، وقد كانت تلك القصص عرضة للتغيير والتحريف في رحلتها الشفاهية الطويلة التي قطعتها من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي.

ويمكننا أن نحدد ألوان هذا القصص الذي وصلنا عن العصر الجاهلي في الآتي:

1- القصص التي تدور حول أيامهم وحروبهم وماسجله أبطالهم فيها من انتصارات مروعة، ومامنيت بيه بعض قبائلهم من هزائم منكرة كيوم داحس والغبراء، وحرب البسوس، وأيام الفجار التي شارك فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وهو غلام صغير، ويوم ذي قار الذي انتصر فيه العرب على الفرس، وهذه الأيام مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ، ويقال إن أبا عبيدة صنف فيها كتابا يحوي 1200 يوم اعتمد عليه من جاءوا بعده، ولم يصلنا هذا الكتاب وإنما وصلنا شرحه لنقائض جرير والفرزدق وفيه طائفة كبيرة منها، وألف فيها من بعده كثيرون منهم الأصفهاني في كتابه الأغاني، والتبريزي في شرحه لحماسة أبي تمام، وابن عبد ربه في العقد الفريد، وابن الأثير في تاريخه الكامل، والنويري في نهاية الأرب، والميداني في كتابه"مجمع الأمثال".

2- القصص التي كانوا يحكونها على ملوكهم من المناذرة والغساسنة ومن سبقوهم أو عاصروهم مثل ملوك الدولة الحميرية، ومثل الزباء ملكة تدمر، مما نجده مبثوثا في تاريخ الطبري، وفي السيرة النبوية لابن هشام، والأغاني للأصفهاني.

وعلى نحو ماكانوا يقصون على ملوكهم كانوا يقصون على ملوك الأمم من حولهم مثل الفرس والروم، يدل على ذلك ماجاء في السيرة النبوية من أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش وممن كانت تؤذي الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان قد قدم الحيرة وتعلم أحاديث ملوك الفرس فكان إذا جلس رسول الله جلسة يذكر قومه ما أصاب الأمم

السابقة قبلهم من نقمة الله بسبب كفرهم، خلفه في مجلسه اذا قام، ثم قال: أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثا منه، ثم يحدثهم عن ملوك الفرس.

3- قصص الهوى وأحاديث العشاق، كقصة المرقش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف، وقصة المنخل اليشكري والمتجردة زوج النعمان بن المنذر، وعروة ابن حزام وعفراء ، وامرؤ القيس وابنة عمه عنزة.وقد أفاض في سرد هذه القصص أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني.

4- قصص الحيوانات المروية في كتب الأمثال كالذي زعموا أن الغراب ذهب يتلعم مشية القطاة فلم يتعلمها ونسي مشيتة فصار أقبح الطير مشية، وكانوا يقولون إن الهدهد لما ماتت أمه أراد أن يبرها، فجعلها على رأسه يطلب موضعا لدفنها، فبقيت على رأسه فما نتأ من رأسه فهو قبرها، وغيرها من القصص الأخرى.

5- قصص الجن والعفاريت والشاطين: وقد زعموا أنها تتحول في أي صورة شاءت إلا الغول فإنها تبدو في صورة امرأة بدون رجلين، وقد زعموا أنها تعرض لهم في الخلوات بالليل أثناء أسفارهم ونسجوا حولها الكثير من الخرافات والأساطير.

ومثل هذه المادة القصصية التي وصلتنا من العصر الجاهلي لايمكن الاطمئنان إلىصحتها، والإعتماد عليها كمادة صالحة للدراسة، ولكن يمكنن الاطمئنان إلى أنها تصور لنا روح القصص وطبيعتها وكثيرا من ملامحها في ذلك العصر.